اسم الدرس : تفسير سورة الفتح ج٢

تصنيف الدرس : مجلس تفسيـر

تفسير سورة الفتح (٢) | الآيات (٢-٨)

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته،

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده؛ محمدٍ -صلى الله عليه وسلم-.

نستكمل بإذن الله -عز وجل- ما بدأناه من تفسير سورة الفتح، أسأل الله أن يجعل هذه السورة فتحًا لنا في ديننا ودنيانا وآخرتنا.

سنحاول أن نرتقي قليلًا في مجالس القرآن من خلال شرح بعض القواعد سواء الأصولية في التفسير أو اللغوية التي ستسهل علينا بعد ذلك؛ لأن المرء أحيانًا يحتاج إلى شرح وتبيين في أول مرة يسمع فيها القاعدة، لكن بعد ذلك وبمجرد ذكر اسم القاعدة فإنه سيتذكر معناها ولن يحتاج كل مرة إلى شرح جديد.

مثال، هناك قاعدة بلاغية مثل التقديم يفيد الحصر أو الاهتمام، نحتاج أن نشرح أين التقديم وما إسقاطه، وهذا سيحتاج بعض الوقت لشرح بعض المصطلحات، سواء مصطلحات الأصوليين أو النحويين أو البلاغيين لمن لم يدرس البلاغة، وهذا سيسهل علينا بعد ذلك عند ذكر القاعدة، لذلك سنقف بعض الوقفات لنشرح قاعدة، بحيث نكون قد فهمناها إذا تكررت.

في المرة الماضية ذكرنا مقدمة عن سورة الفتح، وشرحنا أول آيتين:

{إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا * لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا}

تكلمنا عن السور التي تبدأ بـ "إنّا"، وأهمية هذه السورة، وعلاقة سورة الفتح بسورة محمد -صلى الله عليه وسلم-، وعلاقة سورة الفتح بآل حم، وتكلمنا عن الخلاف الحاصل بين المفسرين في اللام في قوله تعالى {لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ}.

فمثلا:

*قال الإمام الطبري فيها أن هناك محذوفًا أي لتشكر الله فيغفر لك جزاء هذا الشكر.

*وقلنا أن الإمام ابن عطية اعترض عليه وقال أن اللام هنا بمعنى كي.

*أما بعض المفسرين فقد قالوا أن هذه اللام هي لام القسم أي أن الله يُقسم بالمغفرة، وهو أضعف الأقوال في هذه الآية.

*وقيل أيضًا أن الله وعد نبيه بوعود معينة مثل المغفرة، وتمام النعمة، والهداية، والنصر، وقال له ستنال هذه النعم الأربع حينما تُفتح لك مكة، فلما فُتحت مكة كانت البشرى بحصوله –صلى الله عليه وسلم عليها.

وقيل غير ذلك كما ذكرنا في المرة السابقة.

{لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا}.

هنا توجد قاعدة نذكرها يسميها أهل البلاغة الإظهار في موضع الإضمار. ماذا يعني الإظهار في موضع الإضمار؟ أي أن يكون السياق الطبيعي أن يأتي ضمير ولكن أحيانا –ولأجل غرض بلاغي– يُحذف الضمير ويأتي الاسم الظاهر .

فمثلا، أشهر مثال يضربونه من القرآن لشرح هذه القاعدة هو قوله تعالى {قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ} [المجادلة:١].

اللغة العربية دائمًا مبنية على الإيجاز، فلو أمكنك أن تستغني عن ذكر لفظ معين وتأتي بالضمير بدلًا منها فإنك تأتي بالضمير، فاللغة العربية ليست مبنية على تكثير الألفاظ. فكان الأصل في الآية {قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قول الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا}؛ أن لفظ الجلالة قد ذُكر في أول الآية، فطالما أنه ذكر يُعاد إليه بعد ذلك بالضمير. فكان الأصل أن يقال [قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إليه وهو يسمع تحاوركما إنه سميع بصير].

في كل مرة في آية واحدة ذُكر لفظ الجلالة أربع مرات، ففي كل مرة حُذف الضمير وأُتي بلفظ الجلالة.

هذا لغرض بلاغي يسمى بالإظهار، بمعنى أنك أظهرت لفظ الجلالة في موضع كان الأصل فيه الإضمار –أن يأتي الضمير–؛ هذا له غرض فاللغة ليست عبثًا.

وهذا يبين لك شدة إتقان العرب للغة، حتى أنهم كانوا يمازحون بعضهم بالشعر، ثم أعجزهم القرآن على الرغم من قمة إتقانهم لهذه اللغة، لكن القرآن أعجزهم، وكان فعلًا معجزة، فلم يستطيعوا أن يجاروه.

ففي استفتاح سورة المجادلة بهذا الشكل دلالة؛ لماذا يأتي لفظ الجلالة أربع مرات في أول آية من السورة؟ و سورة المجادلة هي السورة الوحيدة التي ذكر فيها لفظ الجلالة في كل آية، فكانت البداية مناسبة لموضوع السورة، ونذكره في تفسير سورة المجادلة إن شاء الله إن أنعم الله علينا وأتممناه.

هنا قال تعالى {لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ} –أي هو– {نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ}[الفتح:٢] فذُكر هنا الضمير المستتر {وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا} –أي الله–، كان المتوقع أن يقول الله تعالى [وينصرك نصرًا عزيزًا]، ولكن الله تعالى قال {وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا}[الفتح:٣]، فذكر لفظ الجلالة –الله– مرة ثانية وكان المتوقع ألا يأتي؛ كان الأصل في اللغة ألا يأتي لأنه ذكر قبل ذلك مع المغفرة {لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ} . فلماذا تكرر لفظ الجلالة تحديدا مع النصر؟

وهنا تحدث العلماء في هذه المسألة كثيرًا:

*قيل أن من أكثر المواطن التي ينسى فيها الإنسانُ اللهَ هو موطن النصر، فالإنسان يظل يدعو وينتظر هذه اللحظة، حتى إذا جاءه النصر نسي الله، ففي هذه اللحظة يذكر الله تعالى لفظ الجلالة –الله– حتى لا ننسى.

وقد كان النبي –صلى الله عليه وسلم– كذلك لا ينسى ربه في مواطن النصر؛ ففي دخوله مكة فاتحًا أدنى –صلى الله عليه وسلم– رأسه الشريفة حتى كادت لحيته أن تمس ظهر الدابة تواضعًا لله –عز وجل–، ودخل ذاكرًا الله –سبحانه وتعالى–.

*وقيل القاعدة المشهورة في القرآن {وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ}[الأنفال:١٠]. فجاء لفظ الجلالة مع النصر؛ لأن النصر لا يكون إلا بالله، فلا تنشغل بالأسباب، ولا تنشغل بمن معك من المؤمنين، ولا تنشغل بما أعددت من عدة وعتاد، وإنما النصر يكون فقط من عند الله –سبحانه وتعالى–. لذلك جاء لفظ الجلالة ظاهرًا مع النصر؛ حتى لا تنشغل بالأسباب، وتشكر الله –عز وجل– عند النصر.

فإذا جاء نصر الله والفتح عليك أن تستغفر وتسبح وتذكر الله، كما قال تعالى:

{إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (١) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا (٢) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا (٣)} [سورة النصر] فلا تنسَ ربك عند النصر ولا تنشغل بالنعمة عن الله.

*وقيل أن لفظ الجلالة يأتي مع المغفرة ويأتي مع النصر؛ فهذه أكثر المواطن التي ينسى فيها العبد ربه هي مع الذنوب، ومع النصر.

وقيل فتح الدنيا والآخرة.

*وقيل أن النصر لا يأتي إلا بعد المغفرة، وأن العائق الأساسي للنصر هو الذنوب، فجاء لفظ الجلالة مع المغفرة {لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ}، {وَيَنصُرَكَ اللَّهُ}، كما كان قول الربانيين {وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ} [آل عمران:١٤٧]،القول الذي قالوه حين الملاقاة هو طلب المغفرة، قبل أن يطلبوا النصر طلبوا المغفرة؛ لأن المانع من نزول النصر هو الذنوب.

كما ذكرنا في المرة الماضية في دعاء الاستفتاح، طلب الفتح بالبُعد عن الذنوب؛ (اللهم باعد بيني وبين خطاياي)[1].

{وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا} هذا مفعول مطلق، أي نصرًا مطلقًا على أعدائك.

{عَزِيزًا} أي لن تُسلب منك مكة مرة أخرى في حياتك، سواء كان المقصود بالفتح فتح مكة أو الفتح في الدعوة أو أن هذه الدعوة لن تموت. فمهما فعل أعداء الله -عز وجل-، فإن هذه الدعوة ستظل عزيزة لن تموت أبدًا. {نَصْرًا عَزِيزًا} مطلقاً إلى يوم الدين.

وهذه من دلائل نبوة النبي -صلى الله عليه وسلم-، ومن أدلة وجود الملِك -سبحانه وتعالى-، تخيل النبي -صلى الله عليه وسلم- عندما كان مستضعفًا في مكة، ثم تنزل عليه آيات تُبشره بالتمكين في الأرض، كيف علم ذلك؟

---

[1] [عن أبي هريرة:] كانَ رَسولُ اللهِ ﷺ، إذا كَبَّرَ في الصَّلاةِ، سَكَتَ هُنَيَّةً قَبْلَ أَنْ يَقْرَأَ، فَقُلْتُ: يا رَسولَ اللهِ، بأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي أَرَأَيْتَ سُكُوتَكَ بيْنَ التَّكْبِيرِ والْقِراءَةِ، ما تَقُولُ؟ قالَ أَقُولُ: اللَّهُمَّ باعِدْ بَيْنِي وبيْنَ خَطايايَ كما باعَدْتَ بيْنَ المَشْرِقِ والْمَغْرِبِ، اللَّهُمَّ نَقِّنِي مِن خَطايايَ كما يُنَقَّى الثَّوْبُ الأبْيَضُ مِنَ الدَّنَسِ، اللَّهُمَّ اغْسِلْنِي مِن خَطايايَ بالثَّلْجِ والْماءِ والْبَرَدِ.
مسلم (ت ٢٦١)، صحيح مسلم ٥٩٨ • [صحيح]

لو أنه يأتي بهذا الكلام من عند نفسه، فما هذه الثقة؟ وكيف حدث هذا؟

لذلك هذه الآيات من دلائل نبوة النبي -صلى الله عليه وسلم-، ففي فتح الحديبية عاد بشروط ظاهرها الإبخاس، ولكنه كان مستبشرًا -صلى الله عليه وسلم- أن هناك فتحًا آتٍ ونصر عزيز، ويكون مستبشرًا -صلى الله عليه وسلم-، هذا من دلائل نبوته، ثم يحدث كل هذا، هذا من دلائل نبوته -صلى الله عليه وسلم-.

ما هذه الثقة وما هذه الطمأنينة وما هذا اليقين؟ هو من قوة فوق قوة البشر، أي أن هذا الكلام لم يأتِ له من بشر، لذلك كان النبي -صلى الله عليه وسلم- مستبشرًا، الصحابة -مثلما قلنا في رواية قبل ذلك- كان يخالطهم الحزن والكآبة، وهو مستبشر -صلى الله عليه وسلم- وموقن بالذي سيحدث لبضع آيات نزلت عليه، انظر إلى يقينه بالآيات -صلى الله عليه وسلم-!

كانت تنزل عليه الآيات فيوقن بها ويتحول، يحدث تغيير للنبي -صلى الله عليه وسلم- وللصحابة، هذا هو اليقين في كتاب الله -سبحانه وتعالى-، كانوا يتلقون القرآن بيقين، كلام الله كان ينزل على قلوبهم يغيرهم، فيتغيرون ويتحولون إلى حالة من الاستبشار واليقين والنصر والفرحة.

لذلك لا بد أن تفرح بالقرآن، حينما تنشغل بأحداث الواقع والاستضعاف وغير ذلك، ثم تعود إلى القرآن تجد أن وعود الله -عز وجل- للدين وليس لك -تكلمنا في هذه المسألة كثيرا-؛ الخلط بين الوعد الشخصي والوعد العام لأهل الإيمان، الوعود في القرآن عامة لأهل الإيمان، فالذي يهمّه الدين يقرأ القرآن ويستبشر، ومن تهمّه نفسه فيمكن أن لا يجد بُغيَتَه في القرآن.

الشاهد أن هذه الآيات كانت من دلائل نبوته -صلى الله عليه وسلم-.

{وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا} هذه العطايا كانت خالصة متتالية للنبي -صلى الله عليه وسلم-؛ جمع له الله -عز وجل- بين المغفرة، وتمام النعمة، والصراط المستقيم أي تمام الهداية، والنصر العزيز.

وقيل أيضا أن المغفرة ذكرت هنا بشرى بطاعة سوف تأتي ويكون ثوابها المغفرة من الذنوب، ما هي هذه الطاعة؟ هي الحج.

لم تكن شعائر الحج قد فرضت بعد، إذ أن الكعبة ليست تحت يد المسلمين، كانت العمرة فقط متاحة، فكانت هذه الآيات بشرى له، أنه من تمام نعمة الله عليك، سوف توفق إلى طاعة من ثوابها مغفرة الذنوب، ويعود الإنسان منها كيوم ولدته أمه.

هذه العطايا كانت خالصة للنبي –صلى الله عليه وسلم-، لذلك عندما سمعها الصحابة قالوا يا رسول الله –صلى الله عليه وسلم– هذه لك، فما لنا؟ فنزلت الآيات {هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ}[الفتح: ٤]، {لِّيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ}[الفتح:٥] عطايا الله –عز وجل– لأهل الإيمان.

وبدأت عطايا الملك –سبحانه وتعالى– لأهل الإيمان بِ {هُوَ الَّذِي أَنزَلَ}، وبدأت عطايا النبي –صلى الله عليه وسلم– بنون العظمة {إِنَّا فَتَحنَا لَكَ فَتحًا}.

{هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ} هذه تُسمى في اللغة تعريف الجزأين، ذكرنا اليوم في درسنا مسألتين مهمتين في اللغة، الأولى الإظهار في محل الإضمار، والمسألة الثانية تعريف الجزأين وهما المبتدأ والخبر، دائمًا في البلاغة لا بد أن نفهم أوّلا ما هو أصل الجملة ثم لماذا حصل التغيير، تلاحظ أن هناك تغييرًا في الجملة ثم تبحث لماذا حدث هذا التغيير.

لأجل أن يبلغ الكلام –وهذه هي البلاغة– أو حتى يكون كلامك مؤثرًا تقوم بتغيير بعض تراكيب الكلام، هذا التغيير يُحدث أثرًا فيبلغ إلى نفوس الناس، لا بد أن تفهم الأصل؛ وهذا هو ما يجعل القرآن معجزًا، وأن المشرك العربي كان ينبهر بسماع القرآن؛ فهو يفهمه. وهذا يبين أهمية دراسة اللغة العربية التي هُجرت في واقعنا وأصبح في ألسنتنا عُجمة، أصبحنا أعاجم.

كنا نتكلم في قاعدة اسمها تعريف الجزأين، وقلنا أن الجزأين هما المبتدأ والخبر؛ الأصل أن المبتدأ يأتي معرفة أم نكرة؟ يأتي معرفة، ما معنى معرفة؟

معرفة أي أنني استعملت أداة مع الكلمة جعلت هذه الكلمة معروفة عندك، كنت لا تعرفها فاستعملتُ أدوات للتعريف جعلتك تعرف هذه الكلمة.

المعرفة ستة أنواع: أن تضع (ال) التعريف، أو تذكر اسمًا معينًا عَلَمًا عليه، أو تشير إليه باسم إشارة، أو بصفة من صفاته، أو بالاسم الموصول، أو تضيف الشيء إلى اسم معين تعرفه، هذه هي أدوات التعريف.

إذا أردت إخبارك عن شيء ما فأصل الجملة أن يأتي المبتدأ معرفة والخبر نكرة. ما معنى المبتدأ والخبر؟

إذا أردت إخبارك عن شخص بصفة، مثلًا 'محمد جميل'، أنا أخبر عن محمد أنه جميل، 'جميل' هنا نكرة، لا أحتاج أن أستعمل معرفة لأخبرك عنه، ولكن يجب أن يكون المبتدأ الذي أخبرك عنه معلومًا عندك. لكن عندما أقول 'محمد الجميل'، طالما أني عَرَّفت الخبر فقد أصبح لي غرض معين، ما هو غرض تعريف الخبر؟ عندما يكون المبتدأ والخبر معرفة هذا من أحد أدوات 'القصر'، كأني أريد أن أقول أنه هو فقط الجميل ولا أعترف بجمال الباقي.

لذلك هنا ﴿هُوَ﴾ الملك –سبحانه وتعالى–، المبتدأ معرفة، ﴿الَّذِي أَنزَلَ﴾ هذا هو الخبر وهو معرف باسم الموصول، إذًا المبتدأ جاء معرفة والخبر جاء معرفة؛ لماذا؟

يقول الله تعالى أنه هو فقط من يستطيع أن يفعل ذلك، هو فقط الله –سبحانه وتعالى– من يستطيع إنزال السكينة في قلوب الناس، في قلوب من يشاء –سبحانه وتعالى–، هو وحده سبحانه الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين؛ أي ما حدث لكم في الحديبية لا يستطيع بشر كائنًا من كان أن يفعله، من المستحيل أن يستطيع أحد أن يأتي بالسكينة، هذه تخص الله تعالى. لأجل ذلك جاء في نفس الآية ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي أن السكينة أمر داخلي باطني لا تستطيع أن تتدخل فيه، قد تكون كل الأسباب الخارجية مواتية للطمأنينة ولا تكون مطمئنًا، وقد تكون كل الأسباب الخارجية عكس الطمأنينة وتكون مطمئنًا ثابتًا، هو وحده –سبحانه وتعالى– الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين.

نريد أن نقف مع هذه الآية ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ﴾، قلنا أن تعريف الجزئين يفيد الحصر، أي أن الله –سبحانه وتعالى– هو فقط الذي فعل ذلك.

ثاني وقفة ﴿أَنزَلَ﴾، يقولون في اللغة 'أنزل' مختلفة عن 'نَزَّلَ'، 'نَزَّلَ' من معانيها التدرج، وقيل 'أنزل' أي دفعة واحدة.

فالصحابة –رضوان الله عليهم– فجأة وجدوا أنفسهم في حالة من السكينة بعد أن كانوا في حالة من القلق والاضطراب والتوتر، هذه النقلة المفاجئة لا تكون إلا من عند الله.

حدثت نقلة في حياتهم وفي قلوبهم، بعد أن كانوا مضطربين ومتعجبين لما يحدث و يقولون لم الصلح ولِمَ نعطي الدنية في ديننا؟ أصبحوا في قمة السكينة والرضا لفعل النبي –صلى الله عليه وسلم–، وقاموا ينحرون هديهم ويحلقون رؤوسهم. هذه النقلة هي من عند الله.

أحيانا قد تكون متوترًا ومضطربًا ثم فجأة –لا تعرف ما الذي حدث– أصبحت منشرح الصدر مقبلًا على الطاعة، هذه اللمسة التي تشعرها في قلبك هي من عند الملك –سبحانه وتعالى–.

{هُوَ الَّذِي أَنزَلَ} وفيها إشارة إلى أن تغيير الأحوال من عند الله يفعله في لحظة، مثل المهدي يصلحه الله بين يوم وليلة. نحن دائمًا نحتاج تدرّجا وأسبابًا، الله سَنَّ سنة الكون على هذا، لكن يستطيع بقدرته –سبحانه وتعالى– أن يفعل ما يشاء وأن يغير الأوضاع في لحظة –سبحانه وتعالى–، فلا تبقى طويلا في فترات الحزن والكآبة، ولا تقل أن هذا الموضوع صعب ويحتاج تغييرًا كليًا ويحتاج ويحتاج.. لا تنشغل بهذا، انشغل بالله وستجد ما في قلبك يتغير.

{هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ} السكينة هي ما يتمناه المؤمن في موضع القلق والاضطراب، السكينة من السكون والهدوء، وجاءت على وزن فعيلة، وهذا الوزن يفيد الثبات بمعنى حالة من الاستقرار.

عندما نبحث أين وردت (السكينة) في القرآن نلاحظ أن لفظ {السَّكِينَةَ} ورد في القرآن ست مرات. ثلاثة منها في سورة واحدة واثنتان في أخرى وواحدة في سورة ثالثة؛ ثلاثة في سورة الفتح وهذا من العجيب لأنه كان المتوقع أن تكون ثلاثة في سورة البقرة لأنها أطولهم، واثنتان في التوبة لأنها أقصر قليلًا، وواحدة في الفتح لأنها الأقصر، لكن الواقع هو العكس تمامًا؛ ثلاثة في الفتح واثنتان في التوبة وواحدة في البقرة.

ثلاثة في سورة الفتح، لأن النعمة والزاد ينزلان على قدر البلاء فالله عندما يبتليك لا يتركك، لا يتركك الملك –سبحانه وتعالى–.

نزل الصبر من السماء كما رُوي عن النبي -صلى الله عليه وسلم- حديث حسنه ابن كثير: (نزل الصبر من السماء على قدر البلاء)[٢] على قدر المصيبة ينزل الصبر. فكانوا يحتاجون السكينة ثلاث مرات في سورة الفتح، ومرتين في التوبة مرة مع غزوة حنين ومرة مع هجرة النبي -صلى الله عليه وسلم- وأبي بكر -رضي الله عنه-، وذكرت السكينة مرة واحدة في سورة البقرة {أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ}[البقرة:٢٤٨] في قصة جهاد طالوت وجالوت.

نجد أن الستة مواضع التي ذكرت فيها السكينة في القرآن كلها إما جهاد أو هجرة، تتعجب لأنك تتوقع أن تنزل السكينة عليك وأنت معتكف في مسجد صغير مظلم أو وأنت منعزل وحدك تتعبد، كلا؛ هذا فهم خاطئ لتحصيل السكينة، السكينة تأتي في المعارك وفي أوقات التضحية والبذل وفي الجهاد والهجرة.

فمن كان يعتقد أنه لن يحصل على السكينة حتى يبتعد عن الضجيج والمشاكل فهذا فهم خاطئ، السكينة تنزل لمن يستحقها وتعطى حينما تبذل، لذا قال تعالى في أصحاب الكهف {وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا}[الكهف:١٤] فعندما قاموا ربط الله على قلوبهم، ولم يقولوا يا رب اربط على قلوبنا كي نقوم، قُم وابذل وحينها ستنزل عليك السكينة والطمأنينة، لا تنتظر نزول السكينة عليك أولًا ثم تبدأ تتحرك، فبعد أن قاموا بالبيعة على الموت، نزلت عليهم السكينة {فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ}[الفتح:١٨].

إذًا السكينة أتت ثلاث مرات في سورة الفتح:

*الموضع الأول أتى بالبشرى العامة بالسكينة.

*ثم في موضعين آخرين في لحظة بيعة الرضوان

*ثم لحظة كتابة شروط الحديبية.

حدث كل ذلك في صلح -أو غزوة -الحديبية ولكن متى بالضبط؟ متى احتاجها الصحابة؟ عندما بايعوا على الموت في بيعة الرضوان، وعندما كانوا يكتبون شروط الصلح.

[٢] [عن أنس بن مالك وأبي هريرة:] إنَّ المَعُونَةَ تأتي مِنَ اللهِ على قدرِ المؤْنَةِ، و إنَّ الصَّبْرَ يأتي مِنَ اللهِ على قدرِ البلاءِ
الألباني (ت ١٤٢٠)، السلسلة الصحيحة ١٦٦٤ • صحيح بمجموع طرقه

والعجيب أن الموقفين ظاهرهما متضاد؛ فموقف نبايع فيه على الموت والبذل، فيه إقدام، والثاني فيه شروط صلح الحديبية وفيه نوع من الإحجام والرضا بوضع معين، إذًا أنت تحتاج السكينة في الموضعين سواء في الإقدام أو في الإحجام؛ لأن السكينة هي التزام مراد الله وأن تكون ساكنًا مطمئنًا.

هذه السكينة هي التي كانت – حتى نفهم معنى السكينة– في قلب موسى عليه السلام في ثباته أمام فرعون، وفي طمأنينة إبراهيم عليه السلام في الهواء قبل أن يصل إلى النار، وفي يقين محمد –صلى الله عليه وسلم– في الغار، وفي سجدة يونس عليه السلام في بطن الحوت، في قمة السكينة والطمأنينة في هذه المواضع المضطربة، فهي مواضع يضطرب فيها الإنسان.

في ثبات موسى وفي طمأنينة إبراهيم وفي يقين محمد –صلى الله عليه وسلم– وفي سجدة يونس في هذه المواقف التي يحدث فيها اضطراب، تنزل فيها السكينة، فيقول إبراهيم عليه السلام وهو في الهواء في أقل من لحظات قبل سقوطه في النار "حسبي الله ونعم الوكيل" كيف استطاع أن يجمع حروفها؟ كيف استطاع أن يتذكرها وهو في الهواء؟؛ **كانت معقودة على قلبه.**

هذه هي العقيدة، هذه هي السكينة التي جعلت النبي –صلى الله عليه وسلم– وهو في قمة الاستضعاف في مكة يسند ظهره إلى الكعبة ويأتيه خباب رضي الله عنه –الذي من شدة تعذيبه حُفرت حفرًا في ظهره– فيقول "يا رسول الله ألا تدعو لنا ألا تستنصر لنا ؟" هذا مشهد ثقيل على الداعية أن يرى أتباعه معذبين ولا يستطيع أن يفعل شيئًا، وهو معه –صلى الله عليه وسلم– بردة حمراء ومسندًا ظهره إلى الكعبة فيقول بعد أن بين لخباب (قد كان فيما قبلكم يؤتى بالرجل ...) بيَّن له صبر السابقين ثم يقين المرسلين (واللهِ ليتمنّ الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئبَ على غنمه، ولكنكم تستعجلون)[٣]. ثم يسند ظهره إلى الكعبة –صلى الله عليه وسلم–؛ هذه هي السكينة، لابُدّ أن تثبت ولابُدّ أن نرى هذه السكينة في القدوات حتى نثبت.

---

[٣] [عن خباب بن الأرت:] شَكَوْنا إلى رَسولِ اللَّهِ ﷺ، وهو مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً له في ظِلِّ الكَعْبَةِ، قُلْنا له: أَلا تَسْتَنْصِرُ لَنا، أَلا تَدْعُو اللَّهَ لَنا؟ قالَ: كانَ الرَّجُلُ فِيمَن قَبْلَكُمْ يُحْفَرُ له في الأرْضِ، فيُجْعَلُ فِيهِ، فيُجاءُ بالمِنْشارِ فيُوضَعُ على رَأْسِهِ فيُشَقُّ باثْنَتَيْنِ، وما يَصُدُّهُ ذلكَ عن دِينِهِ، ويُمْشَطُ بأَمْشاطِ الحَدِيدِ ما دُونَ لَحْمِهِ مِن عَظْمٍ أوْ عَصَبٍ، وما يَصُدُّهُ ذلكَ عن دِينِهِ، واللَّهِ لَيُتِمَّنَّ هذا الأمْرَ، حتّى يَسِيرَ الرّاكِبُ مِن صَنْعاءَ إلى حَضْرَمَوْتَ، لا يَخافُ إلّا اللَّهَ، أوِ الذِّئْبَ على غَنَمِهِ، ولَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ.
البخاري (ت ٢٥٦)، صحيح البخاري ٣٦١٢ • [صحيح]

لذلك نجد بعد آية السكينة التي نزلت على الصحابة {فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ} قال ربنا –سبحانه وتعالى– {وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا}[الفتح:١٨] ثم جاءت آية {وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا}[الفتح:٢٠] هذه الآية التي أتت متأخرة للصحابة، جاءت للنبي –صلى الله عليه وسلم– في بداية السورة في الآية الثانية {وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا}، لقد سبقهم النبي –صلى الله عليه وسلم– بهذه العطايا فكان –صلى الله عليه وسلم– في قمة اليقين.

وعندما تجمع السكينة في الستة مواضع، ومنها ما كان في حنين في لحظات الاضطراب وفرار بعض الصحابة، وفي لحظات الهجرة وفي يقينه –صلى الله عليه وسلم– في قوله لأبي بكر عندما قال "يا رسول الله لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا" انظر إلى يقين النبي –صلى الله عليه وسلم– (ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما). كان الصديق يحتاج إلى هذا الهدوء وهذا اليقين، يسمع هذه الكلمات بنبرة موقنة هادئة، وفي رواية للبخاري قال –صلى الله عليه وسلم– (اسكت أبا بكر؛ ما ظنك باثنين الله ثالثهما)[٤].

انظر، هذه هي السكينة تكون في أشد المواطن اضطرابًا وتوترًا وقلقًا، فتنزل على قلوب المؤمنين.

لا نستطيع أن نصفها، تشعر بها في موطنها، مهما تحدثنا عن السكينة ووصفها وكيف تشعر بها، هذه من الأشياء التي لابد أن تشعر بها حتى تستطيع أن تصفها، ولن تستطيع أن تصفها كمال الوصف؛ لأنها شيء يشعر به المؤمن في وقت الحاجة.

لذلك قال –سبحانه وتعالى– {هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ} لأنها كانت لحظات اضطراب؛ كلمة {فِي} نزلت في جذر القلوب وليست مجرد سكينة عامة، إنما نزلت في قلب كل مؤمن. وتتعجب وتتساءل ما هي السكينة؟ كيف نزلت؟ وكيف لم تذهب إلى أي فرد كافر وهي تنزل، بل تعرف إلى أين تذهب، بل ونزلت بدرجات، فدرجات الطمأنينة تختلف باختلاف درجات الإيمان.

عندما تقرأ قول –الله تعالى– {الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ} تحتاج إلى أن تقول {وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}، ففكري عن الجنود كان فكرًا ضيقًا تمامًا، ولم أفكر أن السكينة من عوامل النصرة،

---

[٤] [عن أبي بكر الصديق:] قلتُ: يا رسولَ اللهِ ! ونحن في الغارِ: لو أنَّ رجلًا اطَّلع لرآنا ، فقال: ما ظنُّك باثنَينِ اللهُ ثالثُهما ؟ وقال: أحدُهما في حديثِه: لو أنَّ أحدَهم نظر موضعَ قدمِه لأبصرَنا ، فقال: ما ظنُّك باثنَينِ اللهُ ثالثُهما
البزار (ت ٢٩٢)، البحر الزخار ٩٦/١ • إسناده صحيح • أخرجه البخاري (٣٦٥٣)، ومسلم (٢٣٨١)، والترمذي (٣٠٩٦)، وأحمد (١١) باختلاف يسير، والبزار (٣٦) واللفظ له

كان تفكيري عن الجنود مجرد سيوف ونبال وعدة وعتاد، ولكن مسألة جنود النصرة أعظم من ذلك بكثير {كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ}[البقرة:٢٤٩].

{هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ} هذا هو الثبات واليقين والطمأنينة، قال ابن القيم رحمه الله "السكينة فيها نور وروح وقوة"، عندما تنزل السكينة تعطيك روحًا بعد أن كنت ميتًا، ونورًا بعد أن كنت لا ترى ولا تبصر، وقوة بعد أن كنت ضعيفًا، فتحيا وترى وتتحرك.

السكينة تُحدث لك نقلة بعد أن كنت إنسانًا محبطًا أشبه بالميت فإذا نزلت عليك السكينة في هذه الأوقات تصبح حيًا مبصرًا قويًا فتتحرك لفعل مراد الله.

من أهمية السكينة في هذه المواطن أنك لا تترك الأحداث تجعلك تتصرف عكس مراد الله، فأحيانًا هي لحظة إما أن تتصرف بطريقة صحيحة أو خاطئة، في لحظة واحدة تحصل لك شدة وضيق مفاجئ، مثل الهروب الذي حدث في حنين؛ إما أن يكملوا الهروب أو تنزل عليهم السكينة ويتداركوا أنفسهم، مثل ما حدث في الغار إما أن تنزل السكينة أو سيتكلم الصديق، من الممكن أن تفقد أعصابك، ومثل الحديبية كان من الممكن أن تفقد أعصابك وترفض شروط الصلح وتخرج السهم لتقتل به أحدًا من المشركين.
فأحيانًا هي لحظات تحتاج فيها السكينة {إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا}[القصص:١٠] كادت هي أن تفضح نفسها لولا أن نزلت عليها السكينة.

فالسكينة تجعلك تلتزم بمراد الله في أشد الأوقات وفي أصعب الأوقات ومن الممكن أن تتكلم بكلمات تصل بها والعياذ بالله لدرجة الكفر، وتعترض على الله، لماذا؟ فأنت لا تفهم الأحداث ولا تفهم لماذا يحدث ذلك، فتحتاج في هذه اللحظات إلى السكينة حتى تسير على مراده -سبحانه وتعالى- في أشد اللحظات، فكما قلنا أن السكينة ليست عبثًا لأي أحد فأنت لا تكون جالسًا في بيتك وتنال السكينة، فالسكينة أتت في القرآن مع الجهاد والهجرة، لا ثالث لهما.

فالسكينة جاءت في أربع مواطن في طالوت وجالوت والهجرة وحنين وفي الحديبية، هذه هي المواطن التي جاءت فيها السكينة في القرآن، وهو -سبحانه وتعالى- وحده من يعطيك السكينة، مهما فعلت وحدثت نفسك بالاطمئنان والأمان والهدوء، والناس تطمئنك، فأنت تحتاج لتثبيت داخلي.

فمثلًا عندما تمسك ورقة الامتحان، تحدث نفسك أنك ستقدر على حلها بإذن الله، حتى لو كنت أرى هذا الكلام لأول مرة، لكن بإذن الله سأستطيع أن أحله، ستنزل علي السكينة.

لكن هناك فرق بين السكينة واللامبالاة. فأحيانًا تكون هناك أزمات طاحنة في الدين وتجد شخصًا لديه لا مبالاة، هذه ليست سكينة فهناك فرق بين السكينة واللامبالاة، فتجد الأعلى منه إيمانًا متوترًا وهو غير متوتر. هذا ليس معناه أنه أكمل إيمانًا، فأحيانًا تكون هذه لامبالاة، فالأكمل أن تحمل هم الدين وتبذل؛ فتنزل عليك هذه الطمأنينة.

لذلك السكينة تلك عجيبة جدًا نزلت في موطن عجيب وكل الناس متوترة وقلقة، فيقوم –صلى الله عليه وسلم– ويصلي في الخلاء، كما يصف البراء بن عازب الرسول –صلى الله عليه وسلم– والحديث في البخاري والتراب يغطي بطنه الشريفة وهو يقول أبياتًا من الشعر (اللهم لولا أنت ما اهتدينا ولا صمنا ولا صلينا فأنزلن سكينة علينا).

فالنبي –صلى الله عليه وسلم– يطلب السكينة في هذا الموطن، في الأحزاب، في ظل وجود عشرة آلاف فرد يحيطون بالمدينة والمنافقين واليهود داخل المدينة، والإعلام المضاد يقول هذه آخر أيام للإسلام هذه هي نهاية الإسلام، وليست هزيمة عابرة مثل أحد بل نهاية الإسلام ولن تكون اسمها المدينة بعد ذلك، {يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا} [الأحزاب:١٣] ، هي نهاية الإسلام كما يتصور المنافقين، و–صلى الله عليه وسلم– يحمل التراب ويقول أبياتًا من الشعر ويقول (فأنزلن سكينة علينا) ويربط الحجرين على بطنه الشريفة –صلى الله عليه وسلم– من الجوع.

رؤية الصحابة للنبي في هذا الموضع بهذه الطريقة، تنزل على قلوبهم السكينة، فأنت تحتاج إلى رؤية القدوات في هذه المواطن في قمة السكينة. لذلك ابن القيم كان دائمًا ما يكرر ويقول "كانت إذا أهمت بنا الأمور وجالت بنا الخطوب وحصلت أحداث عظيمة ذهبنا في السجن لابن تيمية فما أن نراه حتى تنزل علينا الطمأنينة والسكينة" فهم يذهبون إليه في السجن كي يثبتهم، فهم لا يعطونه السكينة بالداخل بل بالعكس، ولكن جنته في صدره.

لذلك السكينة ليست متوقفة على الأسباب الخارجية، بل هي من عند الله، هي من جنود الله، والعجيب –وهذا من ضعف الإنسان– أن الإنسان لا يملك قلبه، فأنت لا تستطيع أن تتحكم في قلبك الذي في صدرك فالخوف الشديد يمكن أن يجعلك تتصرف تصرفات مجنونة، أن تضيع نفسك. لذلك

أنت تستعيذ بالله من شر نفسك، وتخاف من نفسك، ففي لحظات نفسك يمكن أن تقودك و تضيعك، فتحتاج إلى السكينة في لحظات الشدة والاضطراب.

{هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي} وصول لداخل القلب، استغراق، حرف 'في' معناه استغرقت وتخللت في قلوب المؤمنين فهي تعلم أين تذهب، فعطايا الملك -سبحانه وتعالى- ليست عبثًا بل تعلم أين تذهب.

تنزل السكينة في قلوب أهل الإيمان فقط، لذلك تجد اثنين يصلون بين خشوعهم وصلاتهم كما بين السماء والأرض وهما في صفٍ واحدٍ، فعطايا الملك -سبحانه وتعالى- تعلم أين تذهب.

{هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قلوب} وكما يقولون أن هذا القلب بداخل الصدر والشيطان لا يستطيع أن يصل إلى القلب فيبث الشيطان الوسوسة في الصدر، فتظل وساوس الشيطان تجول في الصدر حتى تستطيع أن تصل إلى القلب {الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ}[الناس:٥] في صدور وليست القلوب، فهنا السكينة تخترق وتصل إلى القلوب بفعل الملك -سبحانه وتعالى-.

{هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ}[الفتح:٤] ما معنى {لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ}؟ قبل أن نقول معنى {لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ}، هناك فرق بين قوله {أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ} وبين {وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ}، انظر إلى الفارق بين أنزل وقذف، فالنزول فيه لطف والقذف فيه رعب فكما أن الله -عز وجل- ينزل السكينة في قلوب المؤمنين، يقذف الرعب في قلوب الكافرين.

{وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ} هذا من جنود الملك -سبحانه وتعالى-.

فالسكينة والرعب فقط يمكن أن يقلبوا أية معركة، لذلك تتعجب كيف يكون أحد من أهل الإيمان ويخاف؟، كيف تكون من جنود الملك وتخاف؟

{لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ} ما معنى {لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ}؟ قيل في كل حكم وحادثة تحدث، يكون لله -عز وجل- فيها حكم فإذا التزم أهل الإيمان بهذا الحكم ازدادوا إيمانًا مع الأحكام السابقة، أي ازدادوا إيمانًا مع إيمانهم. بمعنى، قال ابن عباس كانت الأحكام تنزل تباعًا فإن نزلت الصلاة فصلوا فزادوا إيمانًا، فنزل الصيام فآمنوا به فصاموا فازدادوا إيمانًا، فنزلت الزكاة ونزل الحج.

بمعنى أن كل موقف ستعيشه في الحياة سيطلب منك الله أفعالًا ومرادًا لله –عز وجل–، فإذا طبقت مراد الله –عز وجل– ازددت إيمانًا.

بمعنى، حتى يزداد ويستمر إيمانك، لابد أن تطبق مراد الله مع كل حدث يحدث، لذلك كما قلنا قبل ذلك بأن هناك ترابط وتناسق بين سورة محمد وسورة الفتح، فمسألة زيادة الإيمان وتجديد الإيمان بدأت من أول سورة محمد {الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ * وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ} [محمد:١،٢] فهنا الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله تم ذكر الذين كفروا مرة واحدة ثم قال تعالى والذين آمنوا وعملوا الصالحات، ثم بعد ذلك قال وآمنوا بما نزل على محمد بالرغم من ذكر آمنوا الأولى، فما المقصود ب{وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ}؟ كما قلنا أن {نزّل} تفيد التدريج والاستمرار. ف{وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ} أي بكل حكم جديد ينزل على محمد يجددون الإيمان به فيزداودوا إيمانًا. بمعنى أن هناك أناس في وقت الاستضعاف آمنوا وظلوا يؤمنون ولم يكن قد فرض الجهاد وعندما ذهبوا للمدينة وفرض الجهاد توقفوا وقالوا "لن نكمل معك بعد ذلك".

ففي أثناء سيرك في الطريق، هناك أناس يقعون في الطريق، فهناك متطلبات في الطريق فمثلًا يوجد بذل لجزء من المال يوافق ثم إذا طُلب منه بذل النفس يرفض أن يكمل الطريق. فوجود السكينة معك أثناء سيرك في الطريق يجعل أي طلب يُطلب منك، تنفذه {لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا}.

فالصحابة كانوا خارجين لأداء العمرة فحيل بينهم وبين أداء العمرة ثم خرجت إشاعة بأن سيدنا عثمان قُتل فقالوا نبايع على الموت، ثم علموا أن سيدنا عثمان لم يُقتل فتراجعوا عن القتال، فأي طلب يُطلب منهم ينفذونه على الفور مهما كانت التغيرات.

مثل في غزوة بدر، بدأت غزوة بدر بمجموعة صغيرة من الناس خرجت لطلب الْعِير، فانقلب الأمر لمعركة كبيرة؛ فلم يتراجع المؤمنون عنها، بل قاتلوا وجاهدوا في سبيل الله.

فالمؤمن لديه استعدادٌ أن ينفذ أي حكم فيه مراد الله –سبحانه وتعالى–، وكي ينفذه يحتاج إلى سكينة.

فكلمة {لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ}، تعني أن تضع في اعتبارك أنه في الطريق إلى الله، عندما تنفذ شيئًا جديدًا في الدين ألا تترك تنفيذ القديم، لذلك قال {لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ}، فالمقصود أن تَضُمَ الخطوات الإيمانية الجديدة إلى الخطوات الإيمانية القديمة لا أن تَستبدل، بل أن تُضيف إلى دينك لا أن

تنزع شيئًا من دينك وتضع مكانه شيئًا آخر، فعندما تنفذ شيئًا من مراد الله، يضمها إلى تاريخه السابق، فيحافظ عليه.

فكلمة {لِيَزۡدَادُوٓاْ إِيمَٰنٗا مَّعَ إِيمَٰنِهِمۡ} أن كل مرحلة ولها متطلباتها. ففي سورة محمد –صلى الله عليه وسلم–، كان الطلب المطلوب منهم هو أن يجاهدوا، أما في سورة الفتح كان الطلب هو أن يحجموا. فكل مرحلة لها متطلباتها، وعندما تنفذ متطلبات كل مرحلة، ستزداد إيمانًا. بمعنى أنه عندما تأتي مرحلة ما ولها متطلباتها ولم تنفذها، لن يزداد إيمانك، لذا فالإيمان يزداد بالأعمال.

ومثلًا فكرة "أريد أن أغلق على نفسي كي يزيد إيماني" كيف سيزيد إيمانك؟ يزيد إيمانك بأعمال، بحركة، نزول إلى الواقع. كيف تريد أن يزيد إيمانك ويعطيك السكينة؟ يزيد إيمانك بأن تفعل أفعالًا جديدة تضمها إلى الأفعال القديمة فيزداد الإيمان مع الإيمان.

{لِيَزۡدَادُوٓاْ إِيمَٰنٗا مَّعَ إِيمَٰنِهِمۡ}.

فتختم هذه الآية ب{وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ} بعضهم قال السماوات من السكينة التي نزلت من السماء، والأرض هم المؤمنون. وقيل أن السماوات هي الملائكة التي نزلت بالسكينة وَالأرض هم المؤمنون. وقيل أن الغرض منه السعة؛ فمهما حاولت أن تتخيل فلن تستطيع أن تعلم من أين يأتي جنود الله أو كيف يأتون {فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا} [الحشر:٢]، لا تعلم.

هل تتكلم الآية هنا عن الجنود الذين كانوا مع المؤمنين؟ أم عن الجنود الذين نزلوا ضد الكفار؟

هل تتكلم عن شدة مثل ريح أو صاعقة تنزل على الكفار؟ أم تتكلم عن شيئًا كان مع المؤمنين؟

انظر ختام الآية بـ {وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا} [الفتح:٤] إذًا **الآية تتحدث عن المؤمنين.**

بخلاف آية ٧ التي جاءت بعد آيات الكفار {وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا * وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا} [الفتح:٦،٧] هذه من متشابهات القرآن.

{عَلِيمًا حَكِيمًا} جاءت مع المؤمنين، أما مع الكفار فجاءت {عزيزًا حكيمًا}؛ لأن موضع الكفار فيه شدة ومغالبة وينازعون دين الله –عز وجل– والله لا يُغَالَب، فستكون عليهم دائرة السوء.

إنما مع أهل الإيمان، لطف السكينة في نزولها، والله يعلم من يستحق السكينة، وحكيم، الحكيم الذي يضع الشيء في موضعه، فتنزل السكينة في الموضع المناسب لها، فختمت {وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا}

{وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا} [الفتح:٤].

{لِّيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا} [الفتح:٥] اللام ف {لِّيُدْخِلَ} قيل أنها متعلقة بـ{إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا * لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ} وليدخل المؤمنين جنات، أي أن هذا الفتح سيتسبب في أعمال يفعلها أهل الإيمان تكون سببًا في دخولهم الجنة، وكأن هناك بشرى أن من شهد بيعة الرضوان فهو من أهل الجنة وأن من شهد هذا الفتح فهو من أهل الجنة.

{لِّيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ} لماذا ذِكْرُ لفظ {وَالْمُؤْمِنَاتِ}؟ الطبيعي أنه عندما تأتي كلمة المؤمنين في القرآن، تشمل الاثنين. النص هنا على المؤمنات، إشارة في قول بعضهم أنه لوجود نساء معهم، وأظهر دليل على ذلك أن أشهر امرأة كانت موجودة في صلح الحديبية هي أم سلمة التي استشارها النبي -صلى الله عليه وسلم- عندما أمر الصحابة بالحلق والنحر، فمن شدة الحزن لم يستطيعوا ذلك.

هناك فرق بين الرفض عنادًا والرفض لسبب، فمثلًا الفرق بين 'أبى واستكبر' وبين 'أبين وأشفقن'، فالشيطان أبى واستكبر، بينما السماوات والأرض فأبين أن يحملنها وأشفقن منها؛ هناك فرق بين الاثنين.

فالصحابة في موضوع النحر والحلق، كان لديهم إشكالية معينة وليس الرفض.

فاستشار النبي -صلى الله عليه وسلم- أم سلمة، وأشارت عليه أن يحلق رأسه وأن ينحر هديه، ففعل ذلك -صلى الله عليه وسلم- فتقاتل الصحابة على الحلق بعد ذلك.

فقيل في ذكر لوجود أم سلمة وغيرها من النساء، وقيل ما تعانيه المرأة المؤمنة في بيتها ولا يشعر به أحد، ما تعانيه زوجة المجاهد، زوجة العامل لدين الله تشعر بآلام لا يعلمها أحد، فالظاهر هو البلاء الذي ينزل على الرجل، على المجاهد، على الذي يبذل، ولكنَّ هذه المرأة تمر بآلامٍ، من صبر على قتل زوجها أو إيذائه أو قلة النفقة أو الأولاد، لا يعلم ذلك إلا الله؛ فخصها الله -عز وجل- بذلك لأنه يعلم مدى ما تعانيه المرأة.

وأشار إلى ذلك المعنى ابن عاشور –رحمه الله– أن المرأة تعاني من آلام خاصة زوجة المجاهد، زوجة العامل لدين الله تشعر بآلام لا يعلم بها أحد، فألحقها الله –عز وجل– حتى لو لم تكن معهم بذاتها، فنالت ما نالوا.

أيضًا توجد إشارة إلى أن زوجة المجاهد أو العامل لدين الله تنال ما ينال بصبرها وبذلها، فتكون هذه الآيات بشرى لهن.

{لِّيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا}[الفتح:٥]
انظر إلى تربية الله لأهل الإيمان، فالله قال للرسول أنه سينصرك أنت نصرًا عزيزًا، وهذا كان وعدًا خاصًا للنبي –صلى الله عليه وسلم– بفتح مكة، ولكن أهل الإيمان، بشرهم الله –سبحانه وتعالى– بنزول السكينة وزيادة الإيمان ودخول الجنة فقط. هل لن يرى أهل الإيمان النصر؟ سوف يرونه ولكن ليس جميعهم.

{جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ}[الفتح:٥] بعضهم هنا قال أن مع النبي –صلى الله عليه وسلم–، قال الله ليغفر لك ذنبك {لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ}[الفتح:٢] أما مع المؤمنين فقال {وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ}. فلفظ السيئة –الذي فيه معنى الإساءة– لم يأتي مقترنًا مع النبي –صلى الله عليه وسلم–، ولكن جاء مقترنًا مع أهل الإيمان؛ لأن النبي –صلى الله عليه وسلم–، –كما قلنا– في درجة أعلى، ولكن بما أن المقام مقام إتمام نعمة، كان ترتيب الآية المتوقع أن يقال في البداية {وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ} ثم يدخلهم الجنة، فذكر التكفير بعد أن دخلوا الجنة. انظر إلى لطف الله في الآيات، بعد ما دخلوا الجنة قيل لهم أنكم كان لديكم سيئات وكفرت. فإذا قيل له في البداية أنه كان لديه سيئات، قد يخاف؛ فيدخلهم الله الجنة أولًا ثم يذكرهم بعد ذلك بهذه النعم، فدخل الجنة ثم {وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ}.

{ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ اللَّهِ} هذه نقلة للمؤمن من كل الأحداث التي تحدث في الأرض والمشركين والحديبية والشروط والإجحاف والبخس في الشروط إلى معاملة الله في الجنة.

لا تهم قيمة هذا عند البشر {وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا}، {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا}[الأحزاب:٦٩] ليس المهم قيمتك عند الناس؛

فالناس قد يؤذونك، وينشرون كلامًا عنك، لكن المهم هو قيمتك عند الله {وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا}.

{وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ}[الفتح:٦]

{وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ} قال بعضهم أنَّ {يُعذب} منصوبة ومعطوفة على {يُدْخِلَ} كما قلنا أن الفتح جاء لمغفرة النبي –صلى الله عليه وسلم– ولتمام النعمة عليه، وهذا الفتح جاء ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات، وهذا الفتح جاء ليكون سببًا لتعذيب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات.

تعذيب المشركين والمشركات يكون بهدم أوثانهم، وهدم أصنامهم، وقتل صناديدهم المعاندين.

أما تعذيب المنافقين والمنافقات فسيكون بالحسرة التي يجدونها في صدورهم لنصرة أهل الإيمان. لذلك قال بعض أهل العلم أن {وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ} متعلقًا بقوله {لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ}. {هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا} و{لِيُدْخِلَ} ولـ{يُعَذِّب}؛ فنزول السكينة على أهل الإيمان يعذب المنافقين والمشركين. فوجود أهل الإيمان في وقت الفتن في قمة السكون، يعذب المنافق ولا يعرف كيف يتصرف.

كما كانوا يفعلون في شيخ الإسلام ابن تيمية فيقول لهم"ماذا يفعل أعدائي بي؟ جنتي في صدري". يقولون سنسجنك، فيقول سجني خلوة مع الله فأنا مشغول منذ فترة عن ورد القرآن، يقولون سننفيك فيقول سياحة وتدبر في خلق الله، يقولون سنقتلك، فيقول شهادة اللهم لك الحمد.

فقيل أنه من أسباب تعذيب المنافق، الحسرة التي يجدها في صدره من الإيمان والسكينة التي يجدها أهل الإيمان في صدورهم، من أسباب زيادة العذاب المعنوي على المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات.

{وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ} قلنا أن العلماء تكلموا على مسألة أن (ويعذبَ) جاءت منصوبة بالفتحة، إذًا فهي معطوفة إما على (ليدخلَ) لأنها منصوبة. كما قلنا أن الفتح جاء ليبين مغفرة الله عز وجل للنبي –صلى الله عليه وسلم–، وبشرى للمؤمنين بدخول الجنة، وتعذيب المنافقين بالحسرة التي يجدونها في صدورهم لنصرة أهل الإيمان وعزتهم.

فإذا قلنا أن مسألة زيادة الإيمان قبل مجيء النصر، إذًا السكينة وزيادة الإيمان تسبب ألمًا نفسيًا للمنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات.

ثانيًا في هذا الآية ذكر المنافقات والمشركات كما ذكر الله -عز وجل- المؤمنات، وقيل أن الحكمة من ذكر المنافقات والمشركات أنها حرب جماعية يشارك الكل فيها، يشارك فيها الرجل وتشارك فيها المرأة، حرب جماعية لهدم الإسلام. سواء تشارك فيها المرأة المنافقة المشركة بمالها أو بفتنتها أو بدعمها لزوجها، فكأن فيها حض للمؤمنات أن هؤلاء يجاهدن لنصرة الباطل، فماذا ستفعلن؟ فيها حض للنساء المؤمنات، وأيضًا لمعرفة حجم المعركة، فالكل يشارك لهدم الإسلام، ومن بينهم المشركات والمنافقات، فكما شاركوا، ينالهم قسم من العذاب ونصيب من العذاب.

{وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ} والبداية جاءت بالمنافق قبل المشرك؛ لأنه هو العدو الخفي، هو في الدرك الأسفل مِن النار فأنت لا تشعر بهم، ولخطورتهم. وكما تحدثنا في درس سابق أن المنافقين يظهرون ويتكلمون في هذه الأوقات، أوقات الفتنة والاضطراب والجهاد والشهوات، هم يظهرون في هذه المواقف، ويتكلمون في هذه المواقف. لذلك كما سيأتي معنا {سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ} [الفتح:١١] بدأوا يتكلمون، متى يتكلم المنافقون؟ يتكلمون في مثل هذه المواقف ويظهرون على حقيقتهم.

وصفهم الله -سبحانه وتعالى- بوصف يستلزم عذابهم، فَقَالَ ليعذب المنافق. والنفاق أصلًا يستلزم العذاب، والمشرك، فالوصف يحتوي على الجريمة، جريمة النفاق وجريمة الشرك. فأضاف الله -عز وجل- إلى جريمتهم وصفًا آخرًا، فأضاف إلى جريمة النفاق وإلى جريمة الشرك واصفًا لهم وصفًا هامًا من أخطر الأوصاف التي تؤدي إلى النزول في دركات النفاق والشرك وهو ظن السوء.

لذا فمسألة ظن السوء مهمة جدًا في هذه اللحظات وفي سورة الفتح تحديدًا، فمن يثبت في أوقات الفتن والاضطراب؟ من يحافظ على يقينه؟

في غزوة الأحزاب؛ كانت الغزوة كلها في القلوب، وكانت الهزيمة {وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا} [الأحزاب:١٠]، وكان النجاح {هَٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ} [الأحزاب:٢٢] الثبات واليقين.

إذًا، أخطر ما في أوقات الفتن والاضطراب هو أن يبدأ الناس في إساءة الظن بالله، فيبدأ الناس بقول "لن يظل هناك دينًا بعد اليوم"، "لقد ذهب وانتهى كل شيء".

لذلك التركيز على هذا الوصف مهم لأن الإنسان ممكن أن يبدأ –والعياذ بالله– ينزل في الدركات وهو لا يشعر. يبدأ في البداية بضعف الإيمان، ثم بمرض في القلب، ثم بالنفاق، وفي النهاية يجتمع كلهم مع بعضهم البعض {لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ}[الأحزاب:٦٠]. فيوضعون مع بعضهم البعض، والخطورة كلها في ظن السوء، والجريمة الكبرى في هذه اللحظات أنك تسيء الظن بالله.

إذًا فمن أنواع البلاء أن تحدث أحداثًا ويسيء فيها كثير من الناس الظن بالله. فمن أنواع الامتحانات، من أنواع الأسئلة التي سيسأل المؤمن عنها في الدنيا، هي أن تحدث أحداثًا ظاهرُها أنه بلاء عظيم لن يمر، وأنها ستكون نهاية الإسلام، والنجاح في هذا الامتحان هو اليقين في وعد الله.

فهناك أسئلة، فمثلًا أسئلة البلاء الجسدي، وإجابته الصبر، أسئلة ضيق في المادة وضيق في المال، وإجابته الصبر والتحمل، سؤال في الامتحان عن سعة الدنيا، وإجابتها ألا تُفتَن بها، سؤال في الامتحان عن الاختلاف مع أخيك المسلم، وإجابة هذا السؤال أن تصبر عليه {وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ}[الأنفال:١].

ومن الأسئلة التي تأتيك في الامتحان، امتحان الدنيا، من البلاء أن تحدث أحداثًا عجيبة قد تجعلك تسيء الظن بالله وتدفعك لتتساءل إذا ما كنت قد خدعت، أو أن الإسلام لن ينتصر، وإذا ما كنت تسعى لنصرة قضية خاسرة مسبقًا، كما قال بعضهم {مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا}[الأحزاب:١٢]، لقد خدعنا، كما قال المنافقون على أهل الإيمان: {غَرَّ هَٰؤُلَاءِ دِينُهُمْ}[الأنفال:٤٩] أي خُدعوا ووثقوا في دينهم ،وثقوا في موعود الله وفي نصرة الله لهذا الدين.

وصف الظن بالله ظن السوء سيتكرر معنا،{وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا}[الفتح: ١٢] سنتكلم عن علاقة قومًا بورًا بظن السوء، {الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ}[الفتح:٦] أي الذي يظنونه في الدين أنه لن ينتصر وسيهزم، سوف يعود ويدور عليه.

كلمة (دائرة) أي تحيط بهم؛ كأن جهد المنافقين والمشركين هو الإحاطة بالدين، يفعلون دائمًا مثل فكرة الأحزاب، يريدون دائمًا أن يحيطوا بالدين من كل ناحية، مثل أحد المعاني التي قيلت في آخر سورة

الحجر من أنه يريد أن يحيط بالدين من كل اتجاه كي يمنع وصول الدين للناس، الحل أن تكسر هذه الدائرة {فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ}[الحجر:٩٤]؛ لا تترك أحدًا يقوم بهذه الدائرة ويخنق الدين، ويضيق على الدين.

فيقول الله أن هذه الدائرة التي يحاولون ويبذلون لفعلها حول الدين، سوف تدور عليهم وتكون عليهم؛ لأن الله {مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ}[البروج:٢٠] وهذا من معاني اسم الله المحيط،

تطمئنك هذه الآية، فلقد جاءت في ختام سورة التي حفروا فيها أخاديد في الأرض وأحاطوا المؤمنين بها وألقوهم فيها، فيقول الله أن هذا ما فعله أهل الكفر بأهل الإيمان لكن الله من ورائهم محيط، مثل {وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ}[الكهف:٤٢] لن يفلت من الله.

{أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا}[العنكبوت:٤] لا، لن تفلت لأنك محاط {وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ}[البروج: ٢٠].

فيقول الله {عليهم دائرة السَّوْء} أي هم الذين عليهم دائرة السَّوء. وقُرأت {السُوء}، قرأها بعض القراء السبعة بالضم {السُّوء}، وقراءتنا "حفص عن عاصم" وقراءة جمهور القراء {السَّوْء}. قيل الفرق بينهما أن {السُّوء} هو الأذى الحسي، و{السَّوْء} أي الفساد المعنوي.

والجمع بين بالقراءات مهم، وهناك كتب تسمى "توجيه القراءات"، ومن أبسط تلك الكتب وأشهرها، كتاب "الكشف في وجوه القراءات للإمام مكي بن أبي طالب"، يذكر الإمام فيها كل قراءة وماذا تفيد. فلكل قراءة معنى، وتُنَزَّل القراءة منزلة الآية؛ فعندما يكون لدينا قراءتين لآية واحدة، فكأنهما آيتين نستفيد من كل منهما، وتزيد الآيات معنى.

موضوع القراءات من أكثر الأشياء ثراءً وإفادة لتفسير القرآن، لكنها للأسف تتحول الآن إلى شبهة؛ وهذا من ضعف فهمنا لديننا.

{عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ} دائرة السوء هي العذاب الذي سينالونه في الدنيا. {وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ} فترتب على الغضب اللعنة، وترتب على اللعنة أن دخلوا جهنم -والعياذ بالله-.

{وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا} أيضًا التركيز على النهاية الأخروية للمشركين والمشركات والمنافقين والمنافقات، فالنهاية الدنيوية ذُكرت مجملة {عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ}، أما النهاية الأخروية أتت مفصلة حتى يتعلّق المؤمن بالآخرة، { وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا }[الفتح:٦].

كل هذا بسبب أنهم كانوا من {الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ}! هذا يجعلنا نخاف من إساءة الظن بالله، {وَسَاءَتْ مَصِيرًا} كيف سيحدث هذا لهم؟ كيف تحيط بهؤلاء دائرة السوء ونحن مستضعفون؟ وتظل تفكر ..

ثم يطمئنك الله –سبحانه وتعالى– ويقول لك {وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}[الفتح:٧]، لا تقلق، فأنت لا تعلم من أين سيأتي العذاب، ولا يجب أن تعلم من أين سيأتي، فقط كن واثقًا.

فعلًا هذه الآية كأنها تجيبك على تساؤل –وهذا الترابط النفسي مع الآيات من إعجاز القرآن– تساؤل يتبادر في ذهنك عند قراءة الآية، فتأتي الآية التي تليها لتطمئنك عن كيف يحدث ذلك.

{وَلِلَّهِ جُنُودُ} جمع، {جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} وبما أن الآية هنا تبشرك بعذاب سينزل، خُتمت بـ {وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا}.

والحكمة في استعمال اللطف والقوة، في كلتا الحالتين تحتاج للحكمة. في أوقات الاستضعاف أو في أوقات التمكين تحتاج إلى الحكمة؛ حتى نتعلم من أفعال الله. في تعاملك مع المؤمنين تحتاج إلى علم ولطف، وفي تعاملك مع الكفار –وقت التمكين– تحتاج إلى عزة وغلبة وقوة {وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا}.

ثم تأتي الآية –ونختم بها هذا الدرس– {إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ}[الفتح:٨]، لفظ "إنا" ذُكر مرتين في السورة، ولفظ "هو" ذُكر ثلاث مرات تقريبًا، بداية الكلام بـ"هو" أي هو وحده –سبحانه وتعالى– فعل ذلك، فهذه البداية تشير إلى نوع من القصر، فلا يفعل ذلك إلا الله.

و"إنا" تدل على العظمة، وهذا خطاب للنبي –صلى الله عليه وسلم–؛ {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ} و{إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ}، وكأنها أرسلناك ولم نتركك؛ ففتحنا لك، فعندما أرسلك الله للناس لم يتركك؛ فلأجل ذلك فتح لك، أو {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ}؛ لأنك رسولنا، وكيف لا نفتح لك وأنت رسولنا –صلى الله عليه وسلم–، لذلك عندما سأل النبي –صلى الله عليه وسلم– المشركين في سورة الأنعام: {قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ}[الأنعام:١٩].

ما معنى أن يشهد لك الله؟ أي أن الله يشهد لرسوله –صلى الله عليه وسلم– أنه على الحق، فإن قالوا نحن لا نؤمن بالله، فالله سيشهد لرسوله بأفعاله سبحانه، سترون من أفعال الله معي ما يشهد أني رسول الله، سترون أحداثًا عجيبة انظر إلى ثقة النبي –صلى الله عليه وسلم– بالله وسترون من أفعال الله لهذا الدين ما يشهد بأن هذا الدين حق، سترون كيف يرتب الله ترتيبات عجيبة لهذا الدين حتى ينتصر، ولن يموت.

(اللهم رب هذه الدعوة التامة)[٥] تذكر نفسك مع كل آذان أنه مهما بلغ الاستضعاف فسوف تتم هذه الدعوة وسوف تقوم وتنتشر.

{إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ} لوظائف: {شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا}، هناك وظائف معينة تؤديها وكأن هذا الفتح –بتعبيرنا المعاصر– مكافأة نهاية الخدمة، فبسبب تأديتك لوظيفتك على أكمل وجه، جاء هذا الفتح.

{شَاهِدً} على الناس، فلا بد للشاهد أن يصل إلى الناس، المجهود الذي بذله النبي –صلى الله عليه وسلم– حتى يصل للناس ويبلغ الأمانة لهم، يشهد عليهم أمام ربهم. ثم بعد أن يصل إليهم ويشهد عليهم، فإنه يقوم معهم بفعلين {مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا}.

{إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا} إذًا الوظيفة الأساسية هي أن تصل إلى الناس؛ فكما قلنا أن الفتح الأساسي هو الوصول للناس وإزالة العوائق. وكانت الفتوحات الإسلامية بسبب منع أهل الباطل وصول الدين إلى الناس. فالفتح الأساسي كان بإزالة الموانع والفواصل التي بيننا وبين الناس، فتصل لهم الدعوة، وبذلك تكتمل الشهادة على الناس.

فعندما نصل إلى الناس، نفعل أمرين، لا نريد منهم مالًا ولا أي شيء آخر، بل مبشرًا ونذيرًا.

ذُكرت البشارة هنا قبل النذارة. لكن العجيب أن {مُبَشِّرًا} جاءت اسم فاعل، أما {نَذِيرًا} فجاءت صيغة مبالغة؛ كأن النذارة أكثر، فمن الممكن أن تبدأ بالبشارة لكن عليك أن تُكثر من النذارة.

---

[٥] [عن جابر بن عبدالله:] مَن قالَ حِينَ يَسْمَعُ النِّداءَ: اللَّهُمَّ رَبَّ هذِه الدَّعْوَةِ التّامَّةِ، والصَّلاةِ القائِمَةِ، آتِ مُحَمَّدًا الوَسِيلَةَ والفَضِيلَةَ، وابْعَثْهُ مَقامًا مَحْمُودًا الذي وعَدْتَهُ، حَلَّتْ له شَفاعَتي يومَ القِيامَةِ رَواهُ حَمْزَةُ بنُ عبدِ اللَّهِ، عن أبِيهِ، عَنِ النبيِّ ﷺ.
البخاري (ت ٢٥٦)، صحيح البخاري ٤٧١٩ • [صحيح]

فاختلاف الصيغ في اللغة له دلالات عظيمة: "مبشر" يُسمى اسم فاعل، أما "نذير" فيسمى صيغة مبالغة. نعم من الممكن أن نبدأ بالبشارة أحيانًا لكن لابد أن تكون النذارة كثيرة؛ لأنه يغلب على الناس النسيان والبعد عن الله –سبحانه وتعالى–، وهذه الوظيفة الأساسية.

وإذا كانت هذه وظيفة النبي –صلى الله عليه وسلم–، فهذه وظيفتنا ووظيفة كل من يريد أن يسير خلف النبي –صلى الله عليه وسلم–.

{إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا} لماذا؟ وكيف تكتمل الشهادة؟ وكيف تكتمل الوظيفة؟ وكيف نسير على نهج النبي –صلى الله عليه وسلم–؟

هذا ما سنذكره بإذن الله –عز وجل– في الدرس القادم.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم، سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.